آثارُها تشهد على عظمة الدولة الحِمْيَريَّة..

العصيبة.. جبالٌ من الآثار وتلال تزخر بكنوز لم تكتشف بعد!!

استطلاع وتصوير/
فايز محيي الدين البخاري

الحنين وحده هو الذي قادنا إلى أرضٍ حِمير وحاضرتها (ظفار) التي دوّت شُهرتها التاريخية في جميع أرجاء العالم.فقد كانت ظفار ولا تزال حاضرةً بقوّة في كُتُب التاريخ باعتبارها أوّل عاصمة لليمن في الموحّد قبل ظهور الإسلام بقرون.لكن هذه المرّة الرحلة كانت مرّة.لأننا لم نقصد ظفار بالتحديد وعلى وجه الخصوص بقدر ما كانت زيارتنا للوقوف عن كثب على جريمة آثار العصيبية الواقعة إلى الشرق من ظفار بحوالي اثنين كيلو متر فقط.حين ظهرت قضية آثار العصيبية عام ٢٠٠٨م وتناولتها الصحف ووسائل الإعلام المختلفة باعتبارها قضية راي عام لم يبقَ شخصٌ في اليمن إلاّ وسمع بها.ولا اظن انه يوجد شخص لم يسمع بها أو يتاثر او يحزن لما نال تلك الآثار من تدمير همجي وسرقة خسيسة افقدتْ الوطن كنزاً حضارياً لا يُقدّر بثمن؛في ظل جهل استفحل على عقول بعض النافذين والغوغاء الذين لا يعرفون عن الآثار إلاّ ما سيجدونه بجانبها من قِطع ذهبية وبعض الحُلي.

وهذا بحد ذاته الذي ابتُليَتْ به آثار منطقة العصيبية المجاورة لعاصمة الدولة الحميرية ظفار ذي ريدان بمديرية السدة محافظة إب حين تمّ اكتشاف قبر ملكي مبلّط بالرخام وبشكل هندسي بديع وفيه تابوت يحوي مومياء إحدى ملكات الدولة الحِمْيَرية.

● هذا ما كُنتُ قد قرأتُهُ عن آثار وقضية منطقة العُصيبية.لكنّي لم أنو زيارتها إلاّ مؤخّراً حين لاحتْ لي الفُرصة لزيارة هذه المنطقة التي لم يبقَ أحدٌ في اليمن إلاّ وسمع بها واكتوى بمأساتها.لأنّها كانت تُمثّل بحقّ قضية رأي عام من الدرجة الأولى.فضلاً عن أنّها كشفتْ القناعَ عن الجهات المعنية بالآثار والموروث الحضاري؛وعرّتها تماماً ؛ وكشفتْ سوآتها حين أظهرتْ للعيان كم هي مفلسةٌ هذه الجهات من أية مقوّمات وإمكانيات وخبرات تؤهّلها للقيام بواجباتها على أتم وجه.

حين نويتُ زيارة العُصيبية حقيقةً لم أكن أتصور أني سأجدُ كل، وتلك الهمجية والبربرية والوحشية التي وجدتُ عليها حالة الآثار التي تمّ نبشُها بشكل عشوائي وبدائي لا ينم عن وجود أي سلوك حضاري لدى من قاموا بتلك الجريمة الشنيعة والبشعة.لأن طريقة الحفر التي تمّتْ بواسطتها تلك الجريمة كانت عن طريق بعض عُمّال الحقول وبواسطة الأدوات التي يستخدمونها في الأراضي الزراعية وفي تفتيت الصخور كالمعاول والمفارس والصبار.وهذا ما أدّى إلى القضاء تماماً على الكنز الحقيقي المتمثّل بالمومياء الملكية التي تحولّتْ بفعل ذلك السلوك الهمجي والعشوائي إلى مجرّد رماد وتراب بعد أنْ فتّتتها الغوغاء أشلاء متناثرة بحثاً عن ما يحويه ذلك الجسد المحنّط من كنوز داخله ،دون علم أو إدراك للقيمة الحقيقية التاريخية التي تمثلها تلك المومياء النادرة التي كانت ستشكّل نقلة نوعية في عالم الآثار المُكتشفة في اليمن.وكانت ستكشف عن حقبة هامة من تاريخ اليمن القديم وتوضّح قصب السبق لليمنيين في مجال تحنيط المومياوات التي سبقوا بها الحضارة الفرعونية بكثير.وهو ما كان سيعضد من رؤية علماء الآثار الأجانب الذين بحثوا في هذا المجال من خلال المومياوات الموجودة بمتحف قسمّ الآثار بكلية الآداب جامعة صنعاء.والتي تمّ اكتشافها في أواخر القرن العشرين المنصرم في بعض المناطق كشبام الغراس وبعض مناطق محافظة المحويت.

قبر الملكة

● إنّها لمأساة حقيقية أنْ أسمع من بعض أبناء المنطقة المجاورة لجبل العُصيبية عن الشكل الذي بدتْ عليه مومياء الملكة في ذلك التابوت الذي وُجدَ في القبر الذي رأيتُهُ وأخذتُ له بعض الصور.فقد قال لي بعض أبناء قرية الدثية والحقلين وظفار وبيت الأشول أنّهُ بعد الحفر العشوائي من قِبل بعض الباحثين عن الكنوز الذهبية ظهرتْ حفرة تاريخية منحوتة في ظهر الجبل ومُصمّمة بطريقة هندسية غاية في الروعة والجمال.يحيط بها رخام من كل الجوانب. ويصل عمقها إلى أكثر من أربعة أمتار وطولها أكثر من ٣ أمتار وعرضها حوالي ٢٦٠سم.وتقع على الطريق الإسفلتي الذي يربط عزلة جبل عصام بمديرية السدّة مع منطقة شخب عمّار بمديرية النادرة.

وهو الطريق الذي يبدأ من مدينة كتاب في وسط قاع الحقل الشهير ويمر بعاصمة الدولة الحميرية ظفار عبر عزلة العرافة.

حين وصلتُ الموضع الذي أشاروا إلى وجود القبر الملكي المكتشف فيه وجدتُ حراسة عسكرية من أفراد لا يتجاوز عددهم الخمسة وقد نصبوا لهم خيمة على جانب الخط الإسفلتي يمين الذاهب إلى منطقة عمّار ومدينة النادرة.وهي تطل على منطقة شاسعة من قُرى المنطقة الضالع بعض أهلها في تلك الجريمة.وعند وصولنا خيمة الحامية العسكرية للموقع رأينا أسلاكاً تُحيط بالموقع.وسألنا الجنود عن مكان القبر فدلّونا عليه.بعد أن أشاروا إلى موقعه الكائن أعلى الخط الإسفلتي على يسار الذاهب إلى النادرة.

بريق الذهب

● استأذنّا الجنود بمشاهدة قبر الملكة وأخذ صور له فتمنّعوا بالبداية؛وبعد قليل من الحديث الودّي معهم وإبداء التفاعل مع مشكلاتهم العديدة التي يعانونها في ذلك الموقع بعيداً عن اهتمام الجهات الرسمية التي يبدو أنّها رجمتهم في ذلك المكان ونستهم تماماً .ما يعني أنّهُ في ظل ذلك الإهمال الذي يأتي في مقدمته نقص ما يسمّونه (التعيون) أي المواد التموينية.فإنّه قد يتحوّل حاميها إلى حراميها إذا ظلّ أولئك الجنود جوعى ومهملين.

المهم بعد أن شكا لنا الجنود مأساتهم كان الليل قد بدأ يهجم علينا فاصطحبنا اثنان منهم إلى أعلى الطريق حيث يوجد القبر الملكي للومياء المكتشفة التي دمرتها الأيادي الآثمة.وقد كُنّا في أشد الشوق لمشاهدته؛وعلى استعداد تام لدفع إتاوات للجنود فيما لو زادوا في التعنُّت.لكنّهم بدوا نبلاء واصطحبونا إلى الموقع لأخذ بعض الصور وأثروا معلوماتنا بشرح دقيق عن كيفية النبش والحفر العشوائي الذي تمّ به اكتشاف ذلك القبر الملكي للملكة المتوّجة التي كانت داخل تابوت غاية في الروعة ودقيق في عمله وشكله الهندسي.وبحالة ممتازة يندر الحصول على مومياء وتابوت مثل الذي كان داخل ذلك القبر.

وعن ذلك يقول الأخ عبد الغني الزبيدي أحد أبناء المنطقة أنّه عقب ذلك الاكتشاف، وتحت الضغط النفسي الناتج عن تجمهر المشايخ وقبائلهم المدججين بالسلاح ومع رؤية الذهب والحلي والقطع الأثرية عميت الأبصار والبصيرة فسقط التابوت وتحطمت المومياء وتكسرت عظامها وتحولت الملكة إلى تراب تدوسه الأقدام بعد أن بقيت محافظة على كبريائها وعظمتها آلاف السنين.

ووجد الباحثون عن الكنز ضالتهم.وهي المجوهرات والحلي والمشغولات الذهبية التي كانت تتزين بها «الملكة» فضلاً عن أنّهُ كان على رأسها تاج وعلى صدرها وخصرها قطع ذهبية متراصة ومربوطة بسلاسل ذهبية.. وتمّ إخراجها من القبو وأخذت إلى المتحف الوطني بظفار بطريقة أراها ذكية ويراها الآخرون «شيطانية».

موقع واسع

● كنت أعتقد إن عملية الحفر العشوائي ستتوقف للحفاظ على ما تبقى من مكونات «القبر» الذي بدت ملامحه تدل على وجود قبر «ملكي» وهو ما تاكد فيما بعد.. وحتى يأتي خبراء متخصصون يحافظون على المومياء الموجودة في التوابيت التي وجدت بداخل هذا القبر.. لكن مع الأسف أقولها بكل مرارة وحسرة أن ذلك لم يتم فقد استمرت عملية الحفر بنفس الأدوات وبالطريقة البدائية التي لا تدل على إدراك ووعي بأهمية ما تحتويه الصناديق.

كان ذلك الكنز يحتوي على مجموعة من الحلي الفريدة والنادرة في حجمها ونوعها وتشكيلتها والرسومات الإبداعية التي كانت مرسومة ومحفورة في كل قطعة من قطعها.. التي تدل على إبداع صاغته أنامل ذهبية بطريقة لم نصل إليها في عصرنا الحالي وهو العصر الذي نتباهى فيه بامتلاك التكنولوجيا.

لقد شاهدت بأم عيني لمعان الذهب وبريقه بشكل لم أره في حياتي وأكبر ما شدني هو صورة الملكة المرسومة في خاتم من الذهب المرصع بالياقوت والمرجان والفسيفساء ذات الألوان الزاهية والنادرة.

إنّها معجزة العظماء اليمنيين القدماء.. فكيف يعبث بها الجهلة.

نعم لقد رأيتُ الذهب في المتحف وهو كنز بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.. لكني في الوقت نفسه شاهدتُ التابوت وقد تكسّر. والمومياء وقد تدمّرتْ بل وطُحنتْ وصارت تراباً بفعل الجهل والغباء ، وعدم الوعي وبسبب الإهمال واللامبالاة من قبل الجهات الرسمية وتلك هي المأساة!!

بعد هذه الشهادة التي جاءتْ بمثابة (وشهدَ شاهدٌ من أهلها) لا يسعُنا وبعد معاينتنا لذلك الموقع إلاّ أنْ نطلق صيحات التحذير لكل المعنيين.ونحمّل قيادة محافظة إب المسئولية الكبرى في حال ضاعتْ بقية الآثار أو تعرّض الموقع للحفر العشوائي إذا تركوه دون حماية وحراسة مناسبة.لأنّهُ موقع واسع ويحتاج لعدد كبير من الجنود؛فضلاً عن توفير كل ما يلزم أولئك الجنود من متطلّبات لمعيشة كريمة.

وإنْ أنسى في هذه الرحلة شيئاً فلا أنسى ذلك المنظر البديع لتلك السهول الخضراء التي تراءتْ لنا عند وصولنا أوّل الأمر موقع آثار العصيبية.حيث أطلّينا من الموقع على سهول واسعة فاقع في لونها الأخضر ،والمطر الذي كفّ لتوه قد خلّف وراءهُ لوحةً ربّانية مزدانة بالجمال المشع من تلك الحقول الممتلئة بماء المطر التي تُجبرُ المرءَ على التسبيح لخالق هذا الكون الفسيح.